الظهر وصلنا الى محطة المزيريب فركبنا منها القطار الى دمشق شاكرين للعزّة الالهيّة ما منحتنا في هذه الرحلة من اسباب المسرّات

نبذة

في تاريخ جزيرة مالطة

مأخوذة بتصرف عن بعض الثقات المدققين والمحدثين المحققين

بقلم حضرة الاب الفاضل الخوري جرجس السبلاني

انهُ بمناسبة اقامتي في جزيرة مالطة رأيت من المناسب ان ازفَّ الى ابناء جلدتي السورية قرّاء مجلة المشرق الكرام هذه النبذة وانا على يقين من انّها تصادف حسن القبول عالماً مني بان انفسهم تشوق الى استماع شيءٍ عن احوال هذه الجزيرة التي اخذت دوراً مهمًّا في غابر الزمان وحاضره رغماً عن صغرها. فابدأ وبالله المستعان

(تعريفها) يطلق اسم مالطة على ثلاث جزر واقعة في نصف البحر المتوسط. تبعد عن جزيرة صقلية ٨٥ ميلًا بميلة الى الجنوب. وتبعد عن افريقية ١٤٢ ميلًا. اكبر هذه الجزر مالطة ثم غودش (كولوس) المسماة الآن غوزو. وتبعد عن مالطة ٥ اميال. ثم كنونة وهي اصغر منهما وموقعها بينهما

(مقياسها) طول هذه الجزيرة ١٧ ميلًا. وعرضها ٩ اميال. وسطحها ٩٥ ميلًا مربعاً. وسطح غودش يقارب العشرين ميلًا مربعاً. واما سطح كنونة فلا يزيد عن ميل واحد مربع

(هيأتها) انك حينما تضع بصرك على الخارطة المرسومة (عدد ١) لا يخالجك ادنى ريب في انّها تشبه شبهاً تامًّا حوتةً. فهما رمى شلوق. وذنبها الرفأ وقسم من الملّاحة

(تفسير اسمها) لقد تضاربت الآراء واختلفت الاقاويل والتآويل في اشتقاق اسم مالطة. فمن قائل انها كلمة يونانية تعني العسل لجودته بها. وآخر انها كلمة عربية شُقّت من فعل مَلَطَ لخلوها من الآكام والاعراج فهي ملطاء. وفريق آخر يشتقها

من اصل فينيقي بمعنى المأوى ولعل هـذا الاخير هو الاقرب الى الصواب. وذلك لاختيار الفينيقيين لها محطة لهم في رحلاتهم الى اسبانيـة وبلاد المغرب. فكانت لهم احسن ملجأ لحسن موقعها ولاستحكام مرفاها الامين النادر المثـال الذي كونتهُ يد الطبيعة

(تاريخها) اني اقسم هذه النبذة الى ثلاثة اعصر: اولها في اخبار الفينيقيين. والثاني في النرمنديين. والثالث في فرسان القديس يوحنا

العصر الاول

١ً الفينيقيون

ان الجزء الاعظم من المؤرخين يرتأون في ان اول من احتلَّ هذه الجزائر انما هم الفينيقيون (اولاد كنعان) وما حملهم على ذلك الَّا تجارتهم التي كانت في اسبانيـة وافريقية. واماً نظرًا الى تعيين زمان احتلالهم فلم يتفق كتبة التاريخ عليه بل ذهبوا مذاهب فان منهم من يجعلهُ في المائة الثانية عشرة. وبعضهم في المائة الرابعة عشرة. والباقون في المائة الخامسة عشرة قبل ميلاد المسيح

وادخل الفينيقيون هنا في مالطة عبادتهم الوثنية وحكومتهم وشرائعهم وصنائعهم ولم تزل اطلال هياكلهم تنبئ عن ذلك. فترى بقايا هيكل البعل وعشتروت في جزيرة غوذش ويسمونها الآن برج الجبابرة (It-Torri ta'l Giganti (انظر العدد ٢). وترى في مالطة بقايا هيكل السبعة الالهة العظام المعروفة الآن بحجر قيم « اي القائم » (انظر العدد ٣) وهي توجد بازاء قرية تدعى قرنضي (Krendi) « اي المنقرضة » وليس كما فسرها بعض المؤرخين « بالكبيرة » ومما يثبت ذلك تقليد الاهلين الى الآن وهو ان سكان تلك القرية اجرموا جرماً عظيماً جلب عليهم غضب الله وسخطـه بان سلَّط عليهم زلزلة هبطت بقريتهم الى عمق ثمانين مترًا تقريباً. فعليه تكون القرنضي من فعل قرض وليس من (grande) الطليانية. وبالقرب من هذه القرية مزرعة تدعى المقاربة

ويوجد هيكل آخر في ناحية مرسى شلوق يعرف بهيكل ملقرت ومعناه « ربّ البلاد » الذي هو الاعظم ما بين السبعة الالهة المذكورة

لم تزل شهرة الفينيقيين طائرة وصيتهم ذائعاً ليس فقط لامتداد تجارتهم وركوبهم

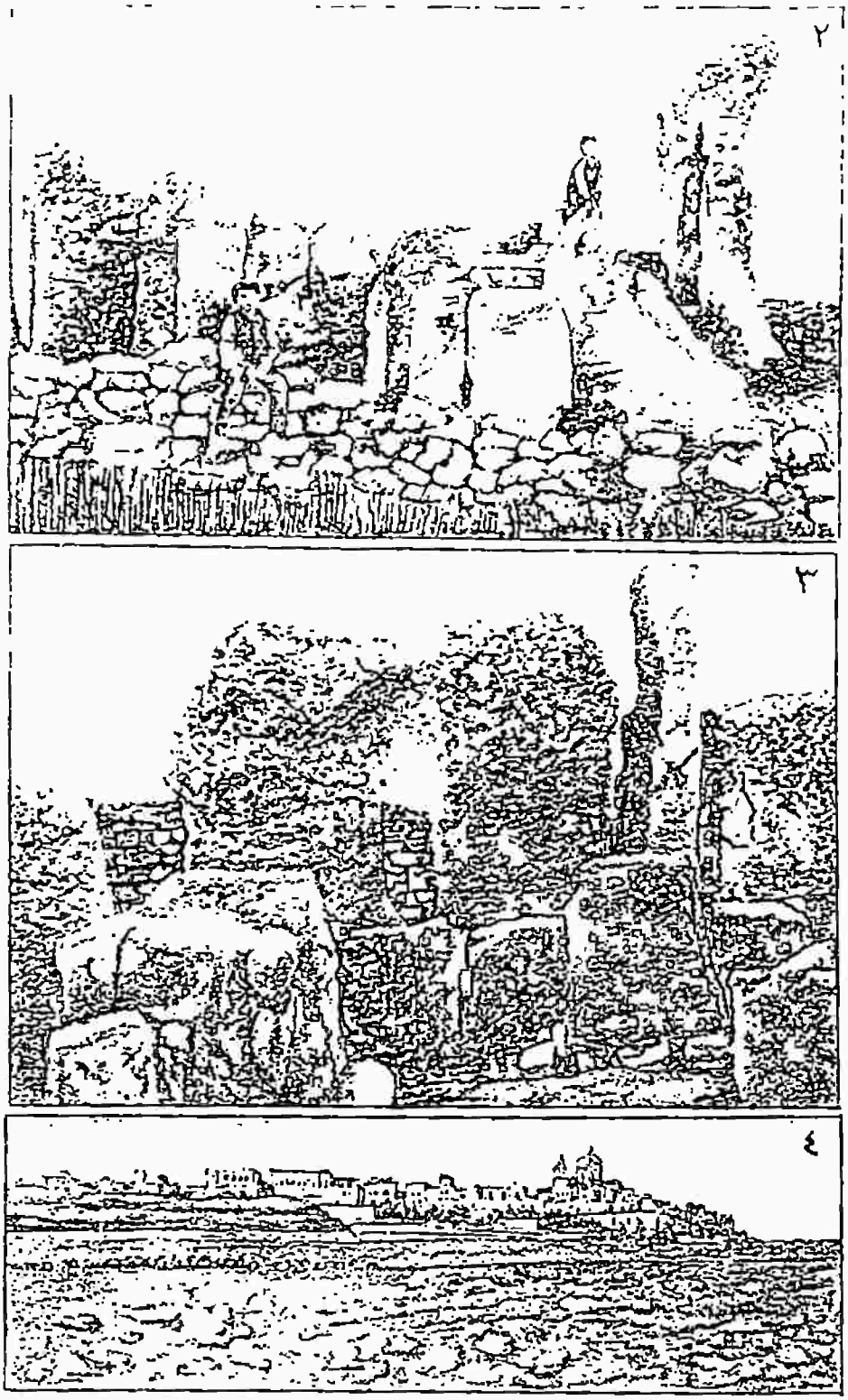

٢ برج الجبارة في غودش = ٣ حجر القيم في مالطة = ٤ صورة مالطة (المدينة)

الاتجار في اكتشاف البلدان بل ايضاً لتقدمهم في العلوم والفنون. وليس من يدري في انهم هم السابقون في استنباط الحروف الكتابية واختراع فني الصباغة والتلوين وعمل الزجاج. فيقضي لنا اذاً ان نقول عن مالطة انها اصابت حظاً وافراً سعيداً وترقّت مراقي المجد والثروة وكانت تفاخر صيدون العظيمة وذلك باحتلال الفينيقيين لها

٢ اليونانيون

يذهب المؤرخون في ان اليونان المزاحمين للفينيقيين في بحر الروم دخلوا مالطة واستولوا على اواسطها. ولبثوا تحت تصرف الفينيقيين الشطوط فقط. وكان ذلك قبل الميلاد بسبع مائة سنة

واقام المذكورون في الجزيرة دار ندوة ترجع جميع الاحكام اليها. غير اننا لم نتوصل الى معرفة اولئك الاشخاص الذين كانوا يُنتخبون اعضاء لهذه الندوة ولا كيفية انتخابهم ولا تعيين الزمان لتبديلهم حتى وليس لنا معرفة اكيدة ثابتة بالسنن التي كان يُعمَل بموجبها في الجزيرة

ومما يقال (وليس بثبت) ان اليونان بنوا البلدة المسماة الآن المدينة التي صغّرها الاغلبيون فيما بعد كما هي عليه الآن وذلك ليتمكن لهم تحصينها جيداً. وهي لم تزل حاضرة الجزيرة الى ان بنيت البلد المدعوة ڤالتّة (Valetta). وكذا بنوا بلداً اخر في جزيرة غودش. وهذه ايضاً صغرها الاغلبيون كما ذكرنا آنفاً

اما الراي العام والمعوَّل عليه الآن عند المؤرخين المحدثين ككروانا (Caruana) وفريمن (Freeman: *History of Sicily*) وغيرهما من ان اليونان لم يستولوا قط على هذه الجزيرة. وهؤلاء بنوا حكمهم في ذلك وحجّتهم على ارتباك المؤرخين القدماء وتناقضهم في اثبات الامر فضلاً عن انهُ ليس لليونان اقل وادنى اثر يُنبئ وينطق بكونهم قد احتلوها. والله اعلم

٣ القرطاجنيون

لقد ضعف الفينيقيون عن ضبط زمام ممالكهم فأدى بهم الامر ان جأوا الى امة اخرى غريبة لتكون لهم مستعمراتهم. ولهذا السبب نرى الاشوريين والفرس قد انتصروا عليهم غير مرة وبذلك الاوان خطت مملكة قرطاجنة (التي بنيت قبل رومة باثنتين وسبعين سنة) خطوات عظيمة في التمدُّن. وكانت تزهو وتزهر بينما كانت مملكة

فينيقية تتقهقر راجعة الى الوراء. ولم تدم الحال حتى دخلت هذه الجزائر تحت سلطة قرطاجنة وذلك باربعمائة وثمانين سنة ق م

اما ما اصاب في عهد القرطاجنيين من التقدُّم لجزيرة مالطة فحدِّث عنهُ ولا حرج لانها لم تتأخر ان احصيت بين اسواق قرطاجنة العظام في عمل الانسجة التي زاحمت بها اشهر المنسوجات في ذلك العصر وهذا الذي جلب لسكانها ارباحاً عظيمة فاضحوا ذوي ثروة وغنى يُذكر. غير ان القطين لم يكونوا بميالين الى القرطاجنيين بما ان هؤلاء قد ولّوا عليهم رجلاً جاهلاً اكثر من الفسق ورتب في المكوس رواتب. وكان ما عتم ان ناوأهم الرومان مستظهرين عليهم. واجلوهم اكثر من مرة عن الجزيرة في عهد اتيليوس ريغولوس (Attilius Regulus)

٤ الرومان

قد اجلى الرومان القرطاجنيين عن مالطة الجلاء الاخير. وكان آخر العهد بهم سنة مائتين وست عشرة قبل الميلاد الالهي. وكانت احوال الجزيرة السياسية والادبيَّة في ايام هؤلاء على غاية ما يرام من الفلاح والنجاح والتقدم في الصنائع والتجارة فاحرزت لذلك شهرة طائرة وذكرًا بعيدًا وغنى وافرًا كما روى ذلك ديودورس الصقلي في تاريخه

٥ احصاء مالطة بين اسهم قيصر

كان الامبراطور اغوسطس قد قسم اراضي مملكته الرومانية بينه وبين شعبه فسمّى ما خصَّهُ سهم قيصر وما خص الآخرين سمّاهُ نصيب الشعب. وكان برج مالطة من ابراج السعد والاقبال لانها أُحصيت ما بين اسهم العاهل الروماني الذي كان قد يبعث اليها ممثلاً له

٦ القديس بولس اوّل وآخر رسول لها

ان اعظم ماجريات مالطة متى كان يخفق فوق اسوارها وابراجها العلم الروماني هو حادثة غرق القديس بولس في السنة الستين للتاريخ المسيحي. فانهُ قد ورد في كتاب اعمال الرسل للقديس لوقا ما ملخصه: «لمَّا قُبض على القديس بولس في اورشليم واقتيد الى كلوديوس ليسياس القائد الروماني الذي ارتأى ان يبعث به الى فيلكس الوالي للبحث في دعواه. اما بولس فلم يشأ ان تسمع دعواه امام الوالي المذكور بل

رفعها الى ديوان اغوسطس . فالتزم حينئذٍ الحاكم ان يرسلهُ الى ايطالية ولذلك سلمهُ مع اسرى اخرين الى يوليوس القائد الذي عامل القديس برفق ولين . وفيما هم يخرون عباب البحر ويخوضون غماره اذ ثارت عليهم انواء شديدة قطعت لهم كل رجاء في النجاة والخلاص . وفي هذه الحال طيَّب القديس نفوسهم وبشرهم بان لا تهلك من واحد منهم شعرة وذلك لظهور الملاك لهُ وتاكيده لهم بالنجاة . وكان عددهم يبلغ مائتين وستًا وسبعين نفسًا . وبعد ما ذاقوا الامرَّين قذفت بهم الامواج او بالحري العناية الصمدانية الى هذه الجزيرة التي اظهر لهم اهلها ما جاوز المعتاد من المؤانسة فاضرموا لهم نارًا ليصطلوا بها وجمع القديس حطبًا كثيرًا ووضعهُ على النار فخرجت من الحرارة افعى وانشبت في يده . فلما رأى اهلها هذا قالوا فيما بينهم : لا جرم ان هذا الرجل قاتل فانهُ بعد ان نجا من البحر لم يدعهُ عدل الالهة يحيا . اما القديس بولس فنفض الافعى في النار ولم يُصب باذى . وكانوا يتوقعون انهُ سينتفخ بفعل سمها او يسقط بغتةً ميتًا فلما طال انتظارهم وراوا انهُ لم يلهُ ضرر عظُم ذلك في اعينهم وقالوا انهُ اله . وفي اثناء ذلك كان ابو پبليوس كبير الجزيرة ملقىً قد اخذتهُ الحمَّى والزحار . فلما دخل عليهِ القديس ابرأه بوضع يديه عليهِ . وهكذا كان سائر الذين بهم امراض في الجزيرة يأتون اليهِ ويشفون . فآمن الجميع على يده وتنصَّروا وهم الى الآن لم يزالوا مسيحيين حقيقيين يكرمون هذا القديس ويدعونهُ اباهم بقولهم « ميسيرنا سان بول » « Missierna San Paul »

٧ . مالطة وانقسام المملكة الرومانية

لما قسم الملك قسطنطين الكبير المملكة الرومانية بين اولاده الثلاثة قسطنطين وقسطس وقسطنت كانت مالطة نصيبًا لاوسطهم بعد موت ابيه سنة ٣٣٧ . واليهِ انضمت المملكة كلها بعد مدَّةٍ . ثم جعل تاردوسيوس هذه الجزيرة تحت حكم ابنهِ اركاديوس (سنة ٣٩٩ ب م) ولم تزل ملحقة باعمال مملكة المشرق الى عهد الامبراطور باسيل سنة ٨٧٠ . وحينئذٍ لم يكن للشعب ادنى علاقة البتة في تدبير شؤون المملكة وكان الامبراطور يولي على مقاطعات وايالات المملكة قوَّادًا يدعون راسيونالين (Rationales) وكانوا يسمَّون سابقًا بنوَّاب قيصر (Procuratores Cæsaris) .

ومما يقال ان السكان في مدة هؤلاء لم يكونوا في راحة الى ان جلس على تخت المملكة يوستنيانس (سنة ٥٢٩ الى سنة ٥٣٤ ب م) وسنّ سننه العادلة التي لاجلها تحسّنت احوال الجزيرة وعادت الى اهلها غبطتهم وراحتهم. وهذه الشرائع لم تزل تتداولها الايدي الى الان وهي المعروفة بدستور يوستنيان (Code Justinien)

٨ الاغلبيون

كان بنو اغلب من نسل ابرهيم بن اغلب قد استولوا على جزيرة صقلية وذلك في زمن هارون الرشيد. وما لبثوا ان قبضوا على زمام هذه الجزيرة ايضاً وذلك في ٢٩ آب من سنة ٨٧٠. وجعل الاغلبيون مالطة امارة بمفردها يدير شؤون الاحكام بها امير يرسله اليها حاكم صقلية

واما نظراً الى حالة العلوم والفنون في عهد هؤلاء فانها قد كانت سائرة في مسالك التقدم ولان القطنيين كانوا في اطيب عيش واهناءٍ مع بني اغلب لِما يربط الشعبين من روابط اللغة واللسان الذي كان اخاً للسانهم. وكذا لِما طُبع عليهِ الاغلبيون من الرقة واللين ولِما عُرفوا بهِ من حسن المداخلة والمعاملة. وما يزيد ذلك ثقةً هو انهُ لما هجم البيزنطيون على الجزيرة كان الاهلون عصبةً واحدة فانكوا بهؤلاء اشد نكاية. وابعدوهم الى اجلٍ غير مسمّى

ولم يبقَ من آثار الاغلبيين المعروفة اليوم غير القلعة التي كبّروها وحصنوها وهي التي تدعى الآن سنت انجلو (S^t Angelo) وكذا لغتهم التي طرأ عليها التبديل والتشويش كما سيجيء (له بقيّة)